

القصاص في الجاهلية والاسلام

بقلم : د . عبد العظيم بدوي

ولقد شرع الإسلام لتحقيق هذه الأمور كلها أحكاماً في جميع المجالات المختلفة، وما ترك أمراً ضروريًا ولا حاجياً ولا تحسينياً إلا وقد شرع له من الأحكام ما يكفل إيجاده وتوكينه، وما يكفل حفظه ورواقه. وقد وجد بالاستقراء أن الأمور الضرورية ترجع إلى خمسة أشياء هي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. فحفظ هذه الضروريات الخمس لا بد منه لاستقامة حياة الناس وتحقيق مصالحهم، حتى لا تعتمد الفوضى، ولا ينتشر الفساد في الأرض.

فاما النفس: فقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وبقاء النوع الإنساني على أكمل وجوه البقاء.

كما شرع لحفظها وكفالة حياتها وإيجاب تناول ما يقيمه من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والديمة والكافارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفعضرر عنها. (انظر: أصول الفقه. لخلاف: ٢٠٤١٩٧).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النِّفَسَاتِ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحُقُوقِ وَمَنْ قُتِلَ مُظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا قَلَّا يُسْرُفُ فِي الْفَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

إن من محسن الإسلام أن شرع للناس ما تستقيم به حياتهم، وتحقق به مصالحهم، يجلب النفع لهم ويدفع الضرار عنهم. وبالتأمل والنظر يتبيّن لنا أن مصالح الناس تتكون من ثلاثة أمور: ضرورية، وحاجية، وتحسينية. فأما الأمور الضرورية فهي ما تقوم عليه حياة الناس، ولابد منها لاستقامة مصالحهم، وإذا فقد اختل نظام حياتهم، ولم تستقم مصالحهم، وعمت فيهم الفوضى والمجازفة. وأما الأمور الحاجية فهي ما يحتاج إليه الناس من اليسر والسعادة، واحتمال مشاق التكليف وأعباء الحياة، وإذا فقد لا يختل نظام حياتهم ولا تعتمد عليهم الفوضى كما إذا فقد الأمر الضروري، ولكن التحسينية فهي ما يسمى اليوم بالكماليات، التي إن وجدت كانت الحياة أزكي وأسعد وأرغد، وإن فقدت لم تؤثر على سير الحياة واستقامتها.

من عظم حرمات الله وصان دماء عباده كان خيراً

توعده الله قاتل المؤمن بأقواءٍ أنواع

ما ترك الإسلام أمناً ضروريًا ولا حاجيًا ولا تحسينيًا

وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَعْقُلُونَ» [الأنعام: ١٥١].
وَعَظَمْ سَبِيحَانَهُ وَتَعَالَى شَانَ الْقَتْلَ فَقَالَ:
«مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مِنْ
قَتْلِ نَفْسٍ يُغْيِرُ نَفْسًا أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانُوا
قَتْلَ النَّاسِ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢].

وَتَوَعَّدَ قاتلَ الْمُؤْمِنِ بِاَنْوَاعِ الْعَقَوبَاتِ
وَأَشَدَّ الْوَانِ الْعَذَابِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَقْتُلُ
مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَحَرَّأَهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِيبَ
اللهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَأَعْذَلُهُ عَذَابًا عَظِيمًا»
[النساء: ٩٣].

فَمِنْ عَظَمْ حرماتِ اللهِ وَصَانَ دَمَاءَ عَبَادِهِ كَانَ
خِيرًا لَهُ، وَمِنْ تَجْرِيَ قَتْلَ مُتَعَمِّدًا بِلَا حَقَّ فَهُوَ
ظَالِمٌ، وَالْمُقْتُولُ مُظْلُومٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: «وَمَنْ
قَتَلَ مُظْلُومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لَوْلَيْهِ سُلْطَانًا» أي حَجَةٌ
وَبِرْهَانًا فِي تَسْلِطَهُ عَلَى الْقَاتِلِ وَمَطَابِقَتِهِ بِحَقِّهِ،
إِمَّا بِالْقَتْلِ، إِمَّا بِالْعَفْوِ عَلَى الدِّيَةِ، إِمَّا بِالْعَفْوِ
مَجَانًا: قَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرُّ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثِي بِالْأُنْثِي فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
شَيْءٌ فَاقْتَبَاعَ بِالْمُعْرُوفِ وَأَدَاءَ اللَّهَ بِإِحْسَانِ ذَلِكَ
تَحْكِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ
عَذَابٌ أَلِيمٌ» [البقرة: ١٧٨]، وَعَنْ أَبِي هَرِيرَةَ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ لِهِ قَتْلٌ فَهُوَ بَخِيرٌ
الظَّرِيفُونَ: إِمَّا أَنْ يُؤْدِي وَإِمَّا أَنْ يُقادَ» (مُتَقَوْلَةُ عَلَيْهِ)
وَالْعَفْوُ مَجَانًا أَفْضَلُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَنْ تَعْفُوا

وَلَقَدْ شَرَعَ الإِسْلَامُ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمْورِ كُلَّهَا
أَحْكَامًا فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَا تَرَكَ
أَمْرًا ضَرُورِيًّا وَلَا حَاجِيًّا وَلَا تَحْسِينِيًّا إِلَّا وَقَدْ
شَرَعَ لَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يَكْفِي إِيجَادَهُ وَتَكْوِينَهُ،
وَمَا يَكْفِي حِفْظَهُ وَرِوَاقَهُ، وَقَدْ وُجِدَ بِالاستِقْرَاءِ أَنَّ
الْأَمْورَ الْمُضْرُورِيَّةَ تَرْجِعُ إِلَى خَمْسَةِ أَشْيَاءٍ، هِيَ:
الْدِينُ، وَالنَّفْسُ، وَالْعُقْلُ، وَالْعِرْضُ، وَالْمَالُ. فَحَفْظُ
هَذِهِ الْمُضْرُورِيَّاتِ الْخَمْسَ لَا يَبْدُ مِنْهُ لِاستِقْدَامَهُ
حَيَاةُ النَّاسِ وَتَحْقِيقَ مَصَالِحِهِمْ، حَتَّى لَا تَعْمَلُهُمْ
الْفَوْضِيُّ، وَلَا يَنْتَشِرُ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ.
فَمَا النَّفْسُ: فَقَدْ شَرَعَ الإِسْلَامُ لِيَجْاهِدَهَا
الزَّوْجُ لِلْتَّوَالِدِ وَالْتَّنَاسُلِ، وَبِقَاءُ النَّوْعِ الْإِنْسَانِي
عَلَى أَكْمَلِ وِجْهِ البقاءِ.

كَمَا شَرَعَ لِحَفْظِهَا وَكَفَالَةِ حَيَاةِهَا إِيجَاب
تَنَاؤلِهَا مِنْ ضَرُورِيِّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
وَاللِّبَاسِ وَالسُّكُنِ، وَإِيجَابُ الْقِصَاصِ وَالْدِيَةِ
وَالْكَفَارَةِ عَلَى مَنْ يَعْتَدُ عَلَيْهَا، وَتَحْرِيمُ الْإِلَقاءِ
بِهَا إِلَى التَّهَكَّةِ، وَإِيجَابُ دَفْعِ الضرَرِ عَنْهَا.
(انظر: أصول الفقه، لِخَلَافٍ، ٢٠٤-١٩٧).

وَفِي أَيَّةِ الْإِسْرَاءِ هَذِهِ يَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِ
الْقَتْلِ فَيَقُولُ: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ» فَالنَّفْسُ الْبَشِّرِيَّةُ لَهَا حَرَمَتْهَا إِنْ
كَانَتْ كَافِرَةً، فَلَا تُرْهِقْ إِلَّا بِحَقٍّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ
يَرِحْ رَأْحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا يَوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ
أَرْبَعِينِ عَامًا» (رواه البخاري: ٣١٦٦) وَالْمَرَادُ
بِالْمُعَاهِدِ الْكَافِرِ الْذَّمِيِّ، الَّذِي لَهُ ذَمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَعَاهِدُهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ. وَإِذَا كَانَتْ
هَذِهِ حَرَمَةُ الْمُعَاهِدِ فَالْمُؤْمِنُ أَشَدُ حَرَمَةً: عَنْ نَافِعِ
قَالَ: نَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا
أَعْظَمُكُمْ وَأَعْظَمُ حَرَمَتْكُمْ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حَرَمَةً عَنْ
اللهِ مِنْكُمْ (ص. ت: ٢٠٣٢). فَالْوَاجِبُ تَعْظِيمُ هَذِهِ
الْحَرَمَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمُ
حَرَمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» [الحج: ٣٠]
وَالْوَاجِبُ صَيَّانَةُ النَّفْسِ الْبَشِّرِيَّةِ وَحَفْظُهَا مِنِ
الْهَلاَكِ، فَإِنَّ الْقَتْلَ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنْ أَصْوَلِ الْمُحَرَّماتِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ
عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْأَدْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَنْقُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقِهِنَّ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا
تَنْقُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ

القصاص، فينطلق أمنا يعلم ويُنتج فإذا الأمة
كلها في حياة».

وإن لم يلجا ولـي المقتول إلى السلطان، أو
لـجـا إـلـيـه فـلـم يـنـصـرـه كـمـا أـمـرـ اللـهـ، كـانـ الإـسـرـافـ
فـيـ القـتـلـ الـذـيـ نـهـىـ اللـهـ عـنـ بـقـوـلـهـ «فـلاـ يـسـرـفـ

فـيـ القـتـلـ إـنـهـ كـانـ مـنـصـورـاـ» وـالـإـسـرـافـ فـيـ القـتـلـ

لـهـ صـورـ كـثـيرـةـ:

مـنـهـ: أـنـ يـقـولـ أـولـيـاءـ المـقـتـولـ: الصـغـيرـ مـنـاـ

بـالـكـبـيرـ مـنـهـ.

وـمـنـهـ: أـنـ يـقـولـواـ: الـواـحـدـ مـنـاـ بـعـشـرـةـ مـنـهـ.

وـمـنـهـ: أـنـ يـقـرـكـواـ الـقـاتـلـ وـيـقـتـلـواـ مـنـ أـمـكـنـهـ

قـتـلـهـ.

وـمـنـهـ: أـنـ يـقـتـلـواـ الـقـاتـلـ وـيـمـثـلـواـ بـهـ. كـذـكـ

كـانـ الـعـربـ تـفـعـلـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ، فـجـاءـ الـإـسـلـامـ

فـقـالـ: «يـاـ أـئـمـةـ الـدـيـنـ أـمـنـواـ كـتـبـ عـلـكـمـ الـقـصـاصـ

فـيـ الـقـتـلـ الـحـرـ بـالـحـرـ وـالـعـبـدـ بـالـعـبـدـ وـالـأـنـثـيـ

بـالـأـنـثـيـ» [الـبـقـرةـ: ١٧٨]

فـحـيـثـ ثـبـتـ أـنـ الـقـتـلـ عـمـدـ وـعـدـوـانـ، وـجـبـ

عـلـىـ الـحـاـكـمـ الشـرـعـيـ أـنـ يـمـكـنـ وـلـيـ الـمـقـتـولـ مـنـ

الـقـاتـلـ، فـيـقـعـلـ فـيـهـ الـحـاـكـمـ مـاـ يـخـتـارـهـ الـوـلـيـ مـنـ

الـقـتـلـ، أـوـ الـعـفـوـ، أـوـ الـدـيـةـ، وـلـاـ يـجـزـوـ لـلـوـلـيـ

الـتـسـلـطـ عـلـىـ الـقـاتـلـ مـنـ غـيـرـ إـذـنـ الـحـاـكـمـ، لـأـنـ فـيـهـ

فـسـادـاـ وـتـخـرـيـباـ» (فـقـهـ السـنـةـ: ٤٥٢) وـإـذـ تـقـرـرـ

الـقـصـاصـ فـهـدـأـتـ سـوـرـةـ الـغـضـبـ فـيـ نـفـسـ وـلـيـ

الـمـقـتـولـ فـبـدـاـ لـهـ أـنـ يـعـفـوـ عـلـىـ الـدـيـةـ فـعـفـاـ

وـتـصـالـحـوـاـ عـلـىـ ذـلـكـ فـعـلـيـهـ أـنـ يـطـالـ الـقـاتـلـ

بـالـدـيـةـ بـالـمـعـرـوفـ، وـعـلـىـ الـقـاتـلـ أـنـ يـؤـدـيـهـ

بـالـإـحـسـانـ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: «فـمـنـ عـفـيـ لـهـ مـنـ أـخـيـهـ

شـيـءـ فـاتـبـاعـ بـالـمـعـرـوفـ وـأـدـاءـ إـلـيـهـ بـالـإـحـسـانـ» ثـمـ

الـوـفـاءـ حـتـمـ لـازـمـ، وـفـرـضـ وـاجـبـ «فـمـنـ اـعـتـدـىـ

بـعـدـ ذـلـكـ» الـصـلـحـ «فـلـهـ عـذـابـ الـيـمـ» فـيـ الـآخـرـةـ

وـيـتـعـنـ قـتـلـهـ، وـلـاـ تـقـبـلـ مـنـهـ الـدـيـةـ، لـأـنـ الـاعـتـدـاءـ

بـعـدـ التـرـاضـيـ وـالـقـبـولـ نـكـثـ لـلـعـهـدـ، وـإـهـادـ

لـلـتـرـاضـيـ، وـإـثـارـةـ لـلـشـحـنـاءـ بـعـدـ صـفـاءـ الـقـلـوبـ

وـمـتـىـ قـبـلـ وـلـيـ الـدـمـ الـدـيـةـ فـلـاـ يـجـزـوـ لـهـ أـنـ يـعـوـدـ

فـيـنـتـقـمـ وـيـعـتـدـيـ» «وـمـنـ عـادـ فـيـنـتـقـمـ اللـهـ مـنـهـ وـالـلـهـ

عـزـيـزـ ذـوـ الـأـنـقـامـ» [الـمـائـةـ: ٩٥]

نـسـأـلـ اللـهـ الـعـظـيمـ رـبـ الـعـرـشـ الـعـظـيمـ أـنـ

يـؤـلـفـ بـيـنـ قـلـوبـنـاـ وـيـصـلـحـ ذـاتـ بـيـنـاـ، وـيـهـدـيـنـاـ

سـبـلـ السـلـامـ

لـهـ، وـمـنـ تـجـرـأـ قـتـلـ مـتـعـمـدـ أـبـلـ حـقـ فـهـوـ ظـالـمـ

الـعـقـوبـاتـ وـأـشـدـ دـالـ وـانـ الـعـذـابـ !!

الـإـلـاـشـرـ عـلـىـ هـمـاـيـكـ فـلـ حـفـظـ !!

أـقـرـبـ لـلـنـقـوـيـ» [الـبـقـرةـ: ٢٣٧]، وـلـقـولـ النـبـيـ ﷺ: «وـمـا زـادـ اللـهـ عـيـدـاـ بـعـفـوـ إـلـاـ عـزـاـ» (صـ.جـ: ٣٥/٢)، وـهـذـهـ الـخـيـرـاتـ كـلـهاـ لـوـلـيـ الـمـقـتـولـ يـطـالـ الـحـاـكـمـ

بـماـ شـاءـ مـنـهـ، وـعـلـىـ الـحـاـكـمـ أـنـ يـمـكـنـهـ مـنـ أـيـهـاـ

شـاءـ، وـلـاـ يـجـزـوـ لـوـلـيـ الـمـقـتـولـ أـنـ يـقـصـنـ بـنـفـسـهـ

وـيـثـارـ لـمـقـتـولـهـ دـوـنـ الرـجـوـ لـلـحـاـكـمـ، قـالـ الـقـرـبـيـ -

رـحـمـهـ اللـهـ: «لـاـ خـلـافـ أـنـ الـقـصـاصـ فـيـ الـقـتـلـ لـاـ

يـقـيمـهـ إـلـاـ أـولـوـاـ الـأـمـرـ، فـرـضـ عـلـيـهـمـ الـنـهـوـ

بـالـقـصـاصـ وـإـقـامـةـ الـحـدـودـ، وـغـيـرـ ذـلـكـ، لـأـنـ اللـهـ

سـبـحـانـهـ طـالـ جـمـيعـ الـمـؤـمـنـينـ بـالـقـصـاصـ، ثـمـ لـاـ

يـتـهـيـأـ لـلـمـؤـمـنـينـ جـمـيعـاـ أـنـ يـجـتـمـعـوـاـ

بـالـقـصـاصـ، فـاقـامـوـاـ السـلـطـانـ مـقـامـ أـنـفـسـهـمـ فـيـ

إـقـامـةـ الـقـصـاصـ وـغـيـرـهـ مـنـ الـحـدـودـ» (الـجـامـعـ

لـأـحـكـامـ الـقـرـآنـ: ٢٤٥ وـ٢٤٦) فـإـنـ لـجـاـ وـلـيـ

الـمـقـتـولـ إـلـىـ السـلـطـانـ وـطـالـ بـالـقـصـاصـ فـقـامـ

الـسـلـطـانـ بـنـصـرـهـ وـتـكـيـنـهـ مـنـ اـسـتـيـفاءـ حـقـهـ

حـقـنـتـ الدـمـاءـ، وـحـفـظـتـ الـأـرـوـاحـ، وـتـحـقـقـ الـأـمـنـ

وـاسـتـقـرـتـ الـحـيـاةـ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: «وـلـكـمـ فـيـ

الـقـصـاصـ حـيـاةـ» [الـبـقـرةـ: ١٧٩] «حـيـاةـ بـكـفـ يـدـ

الـذـيـنـ يـهـمـونـ بـالـاعـتـدـاءـ عـلـىـ الـأـنـفـسـ وـالـقـصـاصـ

يـنـتـظـرـهـمـ، فـيـرـدـعـهـمـ قـبـلـ الـإـقـادـمـ عـلـىـ الـفـعـلـةـ

الـتـكـراءـ، وـحـيـاةـ بـكـفـ يـدـ أـصـحـابـ الـدـمـ أـنـ تـثـورـ

نـفـوسـهـمـ فـيـثـارـوـاـ لـاـ يـقـفـواـ عـنـ الـقـاتـلـ، بـلـ

يـمـضـوـاـ فـيـ الـثـارـ، وـيـتـبـادـلـوـاـ الـقـتـلـ فـلـاـ يـقـفـ هـذـاـ

الـفـرـيقـ وـذـاكـ حـتـىـ تـسـيلـ دـمـاءـ وـدـمـاءـ، وـحـيـاةـ

يـامـنـ كـلـ فـرـقـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـيـطـمـئـنـ إـلـىـ عـدـالـةـ